نافذة

التحيَّة والسلام

دوليّ قطريّ أسرويّ شخصيّ، ماذا يعني لنا حلوله، ماهيته فلسفته؟ أسأل جميعنا القادم، من تنوعنا وتعددنا، واختلاف ألواننا وأديانّنا، ومذاهبنا وطوائفنا، من معتقداتنا الثقافية والأدباء والعلماء، والمفكرين العظماء والبسطاء، من المتمترسين في الحصون والقصور والقلاع، السّاسة والسّادة، عن هذه الكذبة الكبرى التي تستعمر العقل البشري، أسأل الرأسماليّة والاشتراكيّة والليبرالية، أسأل الديمقراطيات والحريّات والقوانين، أسأل الديكتاتوريات الراسخة في عقولنا، ومن وجودنا الظاهر على وجه كوكبنا الحيّ، أسأل الأمم المكتملة، والأمم المنفصلة عن بعضها، أسأل المتخلفة والناميّة والزاحفة نحو الأمام أو الخلف، بعد أن كانت متَّحدةً بفضل عوامل محددة، كالدين والجغرافيا واللغة المتحولة إلى عوالم، فلا الدين يوحد، ولا الجغرافيا، ولا اللغة، حتى التاريخ يفرق، فلكلٍّ تاريخه مستنده الماضي، أو صناعته، خاصيته التي قام عليها، وكذلك الجغرافيا، متصلةً كانت أم مجزأةً، تحدها أنهار أو محيطات أو بحار، أو حتى سهول أو جبال، والسؤال الأهم بين كل ذلك: كيف نصل إلى السّلام، ومغزى عنواننا الذي أسأل، بل تسأل عنه الإنسانية جمعاء، عن الفكرة أو المعتقد، الذي يستطيع إيصالنا إليه؟

السلام Peace، يجسد المثل الأعلى للحرية السياسية، التي من المفترض، أن تنعكس إيجاباً على مجتمعاتها، وبالتالي في جميع الأمم، ولذلك تجدني أفرّق بينها، وبين السلام التحيّة المفردة الاجتماعية الإنسانية المحضة، حيث تشكل لنا جواز المرور من بين بعضنا، باعتبارها تحقق الأمان، لما يعرف في الإنسان، نريدها ضمن الحياة المعيشة، لا تلك الساكنة ما وراء البرزخ، والتي ينتظرها الكثير بعد رحيلهم، وتحيتهم فيها سلام، تلك الكلمة العالمية الأزلية المتشابهة في جميع لغات العالم، سلام شالوم، salute بالإنكليزي، saludo بالإسباني، salut بالفرنسي، салют بالروسي، هذه الكلمة التي تهيمن على العقل البشري الاجتماعي، وما يحتويه من أفكار، وجميعها يسعى إلى التملك، حيث يقودنا إلى الألم والصراع والحرب والمرض، وحتى الخرف أو الزهايمر، وكلما عرف الإنسان قيمة الملكية، تؤله أكثر الخسارة أو استمرار الربح، تدفعه للقتال من أجل ألا يتوقف إليها، من دون أن يعلم أن بعض الأشياء الساكنة في جوهره، لا يستطيع ومهما عمل على تغييرها، لا تتغير، كي تبقى دالةً عليه، وإلا فلمَ نتحدث عن النزوات والثروات والحبّ والكراهية، عن المجازفة والمغامرة والفوضى، والسعي للرقابة، من يعتقد أن الإنسان قادرٌ على الوصول إلى السلام الطبيعي، والحياة قامت على نظرية التضاد من أجل الوجود وإثباته، عن أيّ سلام نتحدث، إذا كان المرء ذاته وبمفرده، يسعى إليه، ولا يجده؟ فكيف بنا نطرح عنواننا الهائل، الذي لا حدود له، والذي أيضاً يتشابه مع الطمأنينة؟ من منّا آمنٌ ومطمئن؟ من يؤمن أن غده معلومٌ، وجميعه مجهول، لذلك تجده يعمل ويخطط وينجز، لكنه مستسلمٌ إليه، وخوفه هائل منه، يتمسك بلغة المقدس، فيقول: الله أعلم، والعلم لله، وسلام هي حتى مطلع الفجر، هل أرادها الإله، أن يكون في هذه الليلة فقط؟ أم إنه قصد النوم الذي نستسلم له، فلا ندري عن الذي يحصل معنا إلا من خلال الأحلام، جميلةً كانت أم على شكل كوابيس.

سعى الإنسان عبر حقبه المتصلة، والتي أقصد منها، أنه لم ينقطع عنها عبر تاريخه الموغل في القدم، والذي عجز العقل عن تقدير بدايته، فاخترع له بداية، وتصوّرها عبر إحداثيات غير مقنعة، لكنه في النهاية صدقها، وقال: إنها بدأت من مليارات السنين، واقتنع أن الشكل الأول والأخير للسلام هو الآلهة ما قبل الرسالات، وحدها بين اختلافه لتكون يهوه، الرب، الله، من باب أنه لم يقدر، وعبر كامل حقبه الزمنية من إنجاز عملية سلام حقيقية واحدة، ونجاحاته فيها، ما هي إلا عملية تخدير مؤقت، وخداع مبرمج، يستعد أثناءها، للقيام بحروب، تحقق الانهزامات والدمار والخراب، مظهراً حتى اللحظة عدم إدراكه لمفهوم بناء السلام، الذي يجب أن يتمَّ في داخل الإنسان أولاً وأخيراً، وكيف به يفعل ذلك، وهو الممتلئ بالشهوة الحاملة للغة التملك، التي تنجب الحسد والغيرة وأفكار التسلط والاعتداء والخوف من المجهول، ما يمنحنا فرصة التأكد من أن انعدام الإيمان بإنسانية الإنسان، وبأنه رسالةٌ خالدةٌ، أهدافها إعمار الحياة بالتعاون مع أخيه الإنسان، فماذا يعني لجميعنا هذا الظلام الشديد المسيطر على جميعنا؟ وكيف نتطلع من خلاله إلى النور، ومهما كان صغيراً أم كبيراً؟ ألا يعني لنا أنه الضوء أو بصيصه الذي ينتظرنا في آخر النفق، حيث يدلنا أنّ النور سلام، والسلام ينتظرنا دائماً، كي نصل إليه بعد الآلام والأمراض، والأزمات والحروب والنكبات، والأحزان والكوارث، كلّ ذلك من أجله، يدعونا لخوض المعارك جميعها، ينتظرنا في النهايات، من يصله فهو مؤمنٌ بوجوده، ومن يفتقد حضوره ينته على سبله.

الخطيئة تتعارض مع السلام، والصراع الإنساني من أجل السلام، ما هو إلا وهم، غزا العقول، يمضي الإنسان عمره بحثاً عنه من باب قلقه الهائل على مستقبله، لا يعرف السكينة، يشتغل، يجمع، يراكم، وفي النتيجة يعود، إما لينفق كلّ شيء من أجل استعادة عمره وصحته، وإما أنه يترك كلّ شيء، ويغادر من دون أن يدري ماذا فعل، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.

السّلام السّياسي يصنع الحروب، وهو دائماً على تضاد مع التحية والسلام الاجتماعي، إلا أنّ الطبيعة البشرية، قامت على الصراع من أجل أن تصل إلى السلام، دائماً نتأمله فنجده ساكناً في الأرياف، بين الهضاب والجبال، لكنَّ إنسان الحداثة، لا يستطيع التعايش معه، يهرب منه إلى المدن، حيث التكاثف والاحتكاك، يبحث عنه فيما بينه، ضمن رحلة الحياة التي لا تنتهي.

د. نبيل طعمة

شهادة الدراما السورية في الشهيد

بطولة وشجاعة وثبات على الموقف وإصرار على المبادئ العليا

من مسلسل «الخوالي»

من مسلسل «رجال الحسم»

وائل العدس

يتوقف الإنسان ملياً أمام يوم يختصر تاريخ شعب بأكمله، تاريخ شعب امتلأت لحظات وجوده الطويل على هذه الأرض، بمرارات وعذابات لا حصر لها، غزوات واحتلال، وتمرد مستمر حتى الثمالة.

في السادس من أيار، علق السفاح التركي جمال باشا رقاب الأحرار من نخبة المثقفين والسياسيين السوريين والعرب في دمشق وبيروت على أعواد المشانق، ولكنه لم يتمكن من أن يطفئ حمية هذا الشعب وشعلته الملتهبة، فإذا به ينتفض في كل مكان مطلقاً صرخة الحرية، وما هي إلا أشهر معدودة حتى أطيح بالمستعمر العثماني.

هكذا تحولت ذكرى هذا اليوم لتشمل جميع شهداء الوطن الأبرار، جميع أولئك الذين ضحوا بدمائهم وحياتهم، على أمل حياة جديدة أفضل للجيل القادم.

وما يحصل حالياً على الأرض السورية ما هو إلا انعكاس للماضي، فمنذ أربع سنوات حتى اليوم انضمت وتنضم قوافل من الشهداء إلى قافلة السادس من أيار على يد الإرهاب في سبيل سيادة الوطن وتحريره من دنس الإرهابيين، حيث يسطّر الجيش العربي السوري بعزيمته وقوته وعقيدته أروع ملاحم البطولة والمجد والإباء والتضحية والشجاعة والثبات على الموقف والإصرار على المبادئ العليا.

وكان السعي من قبل الفنانين محاولة التقاط مفردات الحرب والشهادة لتعيد تقديمها ضمن أعمال تترجم اللحظة بحميميتها وعمق صدقها وتفاعل الناس بها والتفافهم حولها، فكان المزج ما بين الخط السياسي والنضالي والخط الإنساني الصفة الشبه العامة للأعمال الدرامية المقدمة.

اختراع مسجل

من المؤكد أن «إخوة التراب» واكب عذابات الشعب السوري على يد المحتل العثماني الذي تفنن في القتل والتنكيل والظلم والاستبداد.

العمل تاريخي ملحمي يعرض أحداث بداية هذا القرن، ويروي قصة الثورة العربية في سورية التي اندلعت في وجه الاحتلال العثماني بعد أن رزحت البلاد تحت حكمه أربعة قرون من الزمان.

يتناول الجزء الأول منه نهاية الدولة العثمانية والحرب الأولى إلى دخول الجيش العربي إلى دمشق، في حين يعرض الجزء الثاني منه تطور الأحداث منذ دخول الجيش العربي إلى سورية عام ١٩١٨ حتى قدوم الاستعمار الفرنسي عام ١٩٢٠ ونهاية ثورتي إبراهيم هنانو وصالح العلي ضد الفرنسيين، وهو قصة وحوار حسن. م. يوسف. وإخراج نجدة أنزور.

وواضح أن هدف المسلسل هو استعراض هذه الحقبة التاريخية من النضال ضد العثمانيين ثم الفرنسيين وعرض الثورة العربية، ومواقف الحلفاء والدولة العثمانية من العرب.

ووفقاً للعمل فإن الخازوق كان اختراعاً مسجلاً باسم الأتراك، حيث كان يدق بأسفل المقاومين حتى يخرج من كتفهم وربما رأسهم.

أدى أدوار البطولة في هذا العمل كل من: أيمن زيدان، وزهير عبد الكريم، وسوزان نجم الدين، وفايز أبو دان، وجهاد عبدو، وبسام لطفي، وليلى جبر وآخرين.

الشهيد العريس

وتحضرنا في هذه المناسبة تمثيلية (العريس) عام ١٩٧٥ تأليف خالد حمدي وإخراج شكيب غنام، ويدور محور الحكاية حول شاب يستعد لحفل الزفاف، وفي هذه الأثناء يدعوه الواجب الوطني فيلبي النداء، ويستشهد في المعركة.

> في «إخوة التراب» كان الخازوق اختراعاً مسجلاً باسم الأتراك

القصة مستوحاة من بطولات حرب تشرين حيث يستدعى الشاب (حسن) المتزوج حديثاً إلى الخدمة في الجيش والحرب قائمة ويقوم والده ببث قيم الوطنية والشجاعة فيه وإنه إذا استشهد وهو في مواجهة العدو فهو بطل أما إذا قتل وهو هارب، فليس ببطل، ويذهب إلى الحرب ويكون تحت إمرة الرقيب إبراهيم، وفي إحدى المعارك ينجح بإصابة دبابة إسرائيلية بقاذف «آر بي جي» ثم يقوم بالهجوم على دبابة أخرى بواسطة قنبلة يدوية فيتقدم ويلقيها على الدبابة فتصيبه طلقات العدو فيهرع إليه الرقيب إبراهيم ويسأله لم خاطرت بنفسك فيجيبه (خفت أن يسبقني أحد منكم) ثم يستشهد، وعندما يعلم والده بنبأ استشهاده يستقبل النبأ بافتخار ثم يذهب إلى المشفى ليبحث عن أحد رفاق حسن ليروي له قصة استشهاده، فيجتمع بالرقيب إبراهيم الذي يروي له قصة استشهاد ابنه والتي يتأكد منها أن ابنه استشهد وهو يقارع العدو وجهاً لوجه فتقام جنازة للشهيد أشبه بعرس وتنجب زوجة حسن طفلاً فيقرر جده تسميته على اسم والده الشهيد.

وهنا نشاهد تشوق الأم لمعرفة مصير ابنها ونرى كيف ترتسم على وجهها مشاعر الألم والصبر ولاسيما عندما يصر والد الشهيد على إقامة حفل شبيه بحفل الزفاف وسط الدموع، وأن يفرح أهله وجيرانه بهذا الاستشهاد وتقام الحفلة في أجواء تلهب المشاعر وتؤكد أهمية الشهادة في سبيل الوطن وقيمتها ومعانيها الكبيرة، وهو من بطولة صلاح قصاص، وهالة شوكت، وسلمى المصري، وهاني السعدي، وأحمد عداس.

فداء للوطن

ومن الأعمال الدرامية التي صنعت عن الشهادة تمثيلية (شجرة الورد) تأليف وإخراج محمد الطيب، وقد عرضت في عام ١٩٨١، حيث يوجد شاب في مقتبل العمر يعنى بشجرة ورد في بيته العربي، وعندما تقوم المعركة يستشهد دفاعاً عن الوطن في المعركة.

وكانت المسألة الأهم كيف استقبلت أم الشهيد نبأ استشهاد ابنها، حيث استقبل الأبوان الخبر استقبال الصابر الناذر أولاده فداء للوطن.

مقارعة الظالم

«الخوالي» مسلسل تلفزيوني سوري شامي، أنتج وعرض عام ١٩٩٥، وهو من تأليف أحمد حامد، ومعالجة درامية لنجاح المرادي، وإخراج بسام الملا وبطولة: بسام كوسا، وأمل عرفة، وصباح الجزائري، وهالة شوكت، وسليم صبري، وسليم كلاس، وعلي كريم.

وتظهر شخصية البطل «نصار» الذي يقاوم الظلم، ويقارع من يمثلوه (الدولة العثمانية) حتى ينال الشهادة بعد مسيرة طويلة من المقاومة إلى جانب رفاقه من شتى الطوائف والحارات.

عملية فدائية

في عام ٢٠٠٩ قدم نجدة أنزور مع الكاتب فايز بشير مسلسل «رجال الحسم» صورة مشرقة عن بطولات الجيش العربي السوري في حرب تشرين وتضحياته من خلال حبكة جاسوسية يقوم عبرها ضابط سوري بمتابعة شبكة للموساد في أوروبا، وهذه التوليفة الجديدة مكّنت المخرج من إبداع رؤية فنية لراهنية الشهادة والشهيد كقضية حاسمة في المعيش اليومي للسوريين.

وتدور أحداث المسلسل حول مدرس شارك في الحرب واكتشف بعد رجوعه إلى قريته أن والدته وأخاه قد استشهدا فيقرر بعد ذلك الانتقام بعملية فدائية في الأرض المحتلة.

وأدى أدوار البطولة: باسل خياط، ومايا نصري، وعبد الرحمن أبو القاسم، ومنى واصف، وتاج حيدر، وأيمن رضا، وميلاد يوسف، ورامي حنا، ونادين خوري، وآخرين.

سينمائياً

بعيداً عن الدراما، لا ننسى الشهادة في فيلم «ما يطلبه المستمعون» عندما ختم المخرج عبد اللطيف عبد الحميد فيلمه باستشهاد البطل فوق رشاش المضادات الأرضية على صوت فيروز وهي تغني «جايبلي سلام عصفور الجنين»، أعقبه بموكب الجندي الشهيد يتقدم دروب الضيعة محمولاً على الأكتاف وملفوفاً بالعلم السوري وسط زغاريد وأهازيج أهل قريته، فها هو العريس، ها هو البطل يجتاز دروبه معراجاً إلى سماء الخلود، ليدمج بأناقة عالية بين الأغنية الفيروزية ومشهد تشييع «أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر».

الشهادة والشهيد في الفن التشكيلي السوري

تتميّز الحركة التشكيليّة الحديثة برفدها عشرات الأعمال عن حوادث تاريخيّة سابقة

عامر فؤاد عامر

من أعمال الفنان محمد مكي عن الشهادة

تحمل الألوان في نسيجها حالةً رمزيّةً؛ استطاع الفنان التشكيلي الانسجام معها بطريقة لاواعية، فتشكلت ندرة وخصوصيّة، في طريقة التعبير، التي تحمل في وجهها الأوّل، علاقة الفنان الخاصّة بينها وبين اللون ووسيلته في التعبير، والوجه الآخر في العلاقة بين المُنتَج والمُتلقي أو عين المشاهد والمراقب للوحة الفنان وألوانه. لذلك تحتاج الكلمة طريقها في شرح وتوضيح ما يمكن توضيحه، بالاشتراك مع الطابع والإيحاء الذي يمكن للشخص المراقب الإحساس به واستنتاجه. لكن بنظرة بانوراميّة لمفهوم الشهادة، والشهيد، عبر الفنّ التشكيلي المرتبط بالحركة التشكيليّة السوريّة تحديداً، سنجد أن الرمزيّة في الشهادة لم تحمل الطابع العميق جداً، والذي يحتاج للمزيد من الشرح، إذ يبدو أن صبغة اللون تكاد تكون واحدة في معظمها، فقد انحصرت غالباً في اللونين الأحمر والأسود، وكذلك بدت الأشكال، والمجسّمات، والرموز قريبة جداً من ذهن المتلقي، فمجرد النظر للوحة التشكيليّة السوريّة، يمكن الوثوق تماماً من أن الموضوع الذي يعبّر عنه الفنان؛ يتمحور حول الشهادة والشهيد.

ارتباط الحدث التاريخي بالحركة الفنيّة

ومن يلاحظ ويراقب الأحداث التاريخيّة، وتأثر الفنّ التشكيلي بها، فسيجد أنّه دائماً هناك فورة مهمّة بعد كلّ حدث تاريخي، أو منعطف حاسم، يواجه الهمّ الجماعي بالعموم، كذكرى الثورة السوريّة الكبرى (عام ١٩٢٥)، وعيد الجلاء (١٧ نيسان ١٩٤٦)، وعيد الشهداء (٦ أيار ١٩١٦) ونكسة حزيران (٥ حزيران ١٩٦٧) وحرب تشرين التحريريّة (٦ تشرين الأول ١٩٧٣)، وحديثاً انتصارات المقاومة في الجنوب اللبناني، ومواجهة العدو الصهيوني، وحالياً الحرب على سورية، فبعد هذه الأحداث، أو أثناء البعض منها كانت اللوحة التشكيليّة السوريّة، تأخذ بالتكون في جزء من أبعادها، فهذه الأحداث التاريخيّة هي المواد الخصبة، والغنيّة، للفنان التشكيلي، الذي يحمل همّ الوطن، ورغبة النضال، والتحرر من القيود، فهناك إدراك كبير نلاحظه في العموم، وعبر كلّ الأعمال، بأن التشكيلي مدركٌ أكثر من غيره، لأهمية أن يبذل الإنسان دمه رخيصاً، مقابل الحفاظ على طهر الوطن، وجماله، والمحافظة على قيمه، فهذا النبل في الدفاع عن الوطن، يحتاج تقديساً، ليس أجمل من أن يصطبغ بألوانٍ خاصّة، يختارها الفنان التشكيلي على لوحة تصف زمناً، ومرحلة، حملت معاناة جماعيّة، يمكن وضع كلمة الشهادة عنواناً كبيراً لها، ودليلنا البسيط في ذلك، أن ساحات الوطن لا تكاد تخلو من تماثيل ونصب تذكاريّة، حملت كلّ ما وصفناه، وأكثر.

التوثيق من خلال الفنّ التشكيلي

ويعدّ الفنّ التشكيلي، إحدى وسائل التوثيق التي تحمل بعداً كثيفاً يجسّد مرحلةً، أو واقعةً، أو فترةً زمنيّة طالت فيها معاناة الإنسان، قد تمتد لسنوات طويلة، وليست لأيام، أو شهور معدودة، وهذا ما يمكن ملاحظته، في لوحات كثيرة، قدّمتها حركة الفنّ التشكيلي في سوريةً، فعلى مدى سنوات الأزمة يمكن إدراك مدى تأثر الفنان التشكيلي السوري عبر أعماله ولوحاته، التي عكست واقعاً أليماً، فكانت في معظمها تحمل ألواناً واضحةً تدلّ على الهمّ والتعب، ورفض القتل المجاني، ورفض الحصار الخارجي والحرب الهمجيّة التي شاركت فيها دول العالم ضدّ سوريّة، ورغبة الغرب في محو الهويّة التاريخيّة، التي يتمتع بها السوري. في حين أن القليل منها حمل ألواناً ذات بريق، وفرح، إلا في حالة الأمل، والرغبة في نسف الذكرى الماضية، تعلّقاً بمستقبلٍ أجمل، وأفضل، يليق بما يستحقّه من أمان، وحريّة، وعدالة، ومساواة، بعيداً عن لغة الحرب السوداء، وتخريبها للحياة، وكسر جمال الأيام، وتحطيم أمل الأجيال القادمة، التي يُعتمد عليها في البناء المستقبلي، والاعتزاز بهويّة الحضارة، التي ورثها السوري عن أجداده الحضاريّين، الذين سبقوه إلى هذه الأرض المقدّسة «سورية»، وهذا الطابع والواقع هو ما عكسته عشرات المعارض الفرديّة والجماعيّة التي أقيمت في الفترات الأخيرة، إذ يكاد يخلو أي منها من هذه المفردات، فقد حملت همّ المواطن، الشاهد، والرغبة في الانتقال، لمشارف مستقبلٍ، أنصع، وغدٍ أفضل.

غنى الحركة الفنيّة السوريّة

يمكن ملاحظة قلّة اللوحات الفنيّة التشكيليّة، التي تحدّثت، ووثّقت، في موضوع الشهيد، والشهادة، ما قبل استقلال سورية، وجلاء المستعمر الفرنسي عنها، وما بعد هذا الحدث، وهذا الأمر طبيعي، كون البلاد أخذت حالةً من الاستقرار والبناء السليم بعيداً عن القلاقل، وعدم الاستقرار، فالفنّ بقدر ما هو حالة فعّالة في الدفاع عن الحق المغتصب، يحمل من ارتباط وملاصقة للاستقرار السياسي للبلد الكائن فيه، لكن ما يميّز الحركة التشكيليّة الحديثة، أن هناك رصيداً بعشرات الأعمال التي أغنت المرحلة السابقة، التي لم تُخلق فيها حركة فنيّة عاصرت الأحداث السابقة، وذلك نتيجةً لعدم الاستقرار وعدم توافر ظروف نمو الفنان والفنّ كما أسلفنا، لذلك نجد أن اللوحات التي جاءت في مرحلة ما قبل الجلاء، جلّها حديث التكوّن، والنشأة، والإصدار، ويتحدّث من زماننا عن تلك الأزمان والفترات، وهذا ليس إلا دليلاً على وعي الفنان التشكيلي السوري، وبرهاناً للمحبّة في توثيق معاناة شعب مشترك الهمّ، والنظرة الموحدة، نحو النصر، والحريّة، والانتصار لبعضنا البعض، كأبناء بلدٍ واحدٍ وتاريخٍ مشترك.